بداية قيام الدولة الشيعية (الفاطمية) في الجزائر وخبر أبو عبد الله الشيعي

ملخص قيام الدولة الفاطمية في المغرب

يرجع الفضل في نجاح الدعوة الإسماعيلية ببلاد المغرب إلى الداعية أبي عبد الله الشيعي المؤسس الأول للدولة الفاطمية في المغرب ، وأصله من الكوفة ، ويُعرف بالمعلم ، لأنه كان يعلم الناس مذهب الإمامية الباطنية) الذي ضحى بنفسه و ماله ودينه و دولته!من أجل كذاب يدعي أنه المهدي بل و يؤسس له دولة حتى و هذا المهدي مرمي في السجن ثم يخرجه من السجن و يقدمها له على على طبق ذهبي و يجلس بعدها تحت ركبتيه و تحت رحمته! ثم ماذا ينال ؟ القتل، نعم القتل. إقرأ القصة بعد هذا الملخص:
اتجه أبو عبد الله الشيعي أولا إلى اليمن ومنها عاد إلى مكة في موسم الحج، وهناك التقى برجال من قبيلة كتامة البربرية، فاختلط بهم ، ومثل الزهد والورع عليهم ، ثم سألوه عن مقصده ، فأدعى أن أنه يريد مصر ليعلم بها ، فدعوه إلى بلادهم للقيام بهذه المهمة ، فقبل الدعوة ، ونزل عندهم سنة ٢٨٨هـ في موطنهم بين جبال أوراس والبحر بنواحي قسنطينة شرقي الجزائر.

مراحل الدعوة الفاطمية

ينقسم تاريخ الدعوة الفاطمية إلى مرحلتين : مرحلة الدعاية ، ومرحلة الحرب.

المرحلة الأولى : مرحلة الدعوة

استغرقت مرحلة الدعاية ثلاث سنوات (٢٨٨ – ٢٩١هـ) ، وكانت مجرد دعاية سلمية لجذب الأنصار . استخدم الداعي فيها التنبؤ والسحر والتبشير ، كوسيلة من وسائل الدعاية التي تلائم عقلية الناس في هذه المناطق ، وصنع من الحيل والطلاسم والرقي والأحجية ما أذهل العقول ، فأتاه الكتاميون من كل مكان فأخذ يبشرهم بظهور المهدي ، وأن له هجرة ينصره فيها الأخيار ، وهم قوم اسمهم مشتق من الكتمان (يعني كتّامة) . وأخذ يهيئ عقولهم – على هذا النحو – لقبول فكرته واعتناق المذهب الإسماعيلي، ووجدت دعوته قبولا من بعض الأغرار ، ورفضا مطلقا من البعض الآخر ، وقامت حروب بين كتامة وبعض قبائل البربر ، أضطر الداعي إلى الاختفاء خلالها. لاسيما بعد تعرضه للقتل ، ولما انتصر أتباعه وقويت شوكتهم ، عاود الظهور ليدشن مرحلة الحرب .

المرحلة الثانية: مرحلة الحرب

استمرت ست سنوات، اصطدم خلالها بدول أربع كانت قائمة في المغرب آنذاك، وهي:
-دولة الأغالبة :(١٨٤ – ٢٩٦هـ) وكان نفوذها ضعيفا داخل أفريقية ، وقويا في حوض البحر المتوسط ، حيث كانت في حالة جهاد ضد النصارى في جزيرة صقلية ومالطة والسواحل الإيطالية ، مما

ساعد أبو عبد الله الشيعي الذي كان متحصنا في جبال كتامة ، أن يطعنها في ظهرها ، وأن يستولي على عاصمتهم القيروان وينهي حكمهم الذي كان قائما باسم الخلافة العباسية ، سنة ٢٩٦هـ ، وورثت الدولة الفاطمية عنها قوة بحرية هائلة في المغرب وصقلية، استخدمتها – فيما بعد – في غزو شواطئ المسلمين والقرصنة على سفنهم – ولاسيما مسلمي الأندلس -

ملاحظة:

اغتنم أبو عبد الله الشّيعي فرصة غياب الأمير ألأغلبي إبراهيم بن أحمد الذي توجه إلى جزيرة صقلية سنة 289-901م لفتح مدينة طرمين الحصينة بجزيرة صقلية،وكان موسى بن عباس صاحب مدينة ميلة قد أسهم في هذا الغزو بنصف قواته وكانت من العوامل التي سهلت مهمة أبي عبد اللّه الشيعي ، قام أبو عبد اللّه الشيعي بإسقاط ميلة وتعين والي جديد عليها يدعى أبو يوسف ماكنون بن ضبارة الأجاني الكتامي عم أبي زاكي و توالت هزائم الأغالبة وانتصارات الفاطميين إلى أن دخل الداعية الشيعي القيروان واسقط الدولة الأغلبية سنة ٢٩٨هـ / ٩٠٨م ومن ثم نلخص القول أن ميلة كانت أول مدينة أغلبية تسقط في يد الفاطميين

-الدولة الرستمية : (١٤٤ – ٢٩٦هـ)وهي دولة خارجية أباضية ، كانت عاصمتها ناهرت غربي الجزائر

-الدولة المدرارية : (١٤٠– ٣٤٩هـ) وعاصمتها سلجماسة في جنوب المغرب الأقصى ، وكانت دولة خارجية صفرية.

دولة الأدارسة (١٧٢ – ٣٦٣هـ) وهي دولة علوية حسنية ، وكانت عاصمتها فاس ، وهؤلاء لم يكونوا شيعة ، رغم كونهم من أبناء علي كرم الله وجهه . وتعرضت مثلها مثل غيرها من الدول الأخرى – لعداء الفاطميين وهجومهم ، مما أضطر الأدارسة إلى الانسحاب شمالا والتحصن في جبال الريف

قدوم المهدي عبيد الله وأهم أعماله الأولى

وأثناء ذلك قام الداعي الفاطمي بإرسال وفد من كتامة إلى المهدي عبيد الله والذي كان متخفيا ببلدة سلمية من أعمال حمص ، يدعوه للقدوم ، فقدمها إلى المغرب فوصلها في عام ٢٩٦هـ . وكان عليه أن يواصل جهوده لقيام الدولة، وتقويتها فظهرت إلى الوجود عام ٢٩٧هـ. وأما أبرز الأعمال التي قام المهدي بعد قدومه فقد تمثلت فيما يلي:

-1اغتيال الداعي الشيعي أبي عبد الله : سنة ٢٩٨هـ، لكون كل منهما كان يريد الاستئثار بالسلطان دون الآخر ، ووصل الأمر بالداعي الشيعي إلى التشكيك في الخليفة الفاطمي ، ودعوة الناس إلى عصيانه ، بل وحتى التآمر مع أصحابه على قتله ،.فكان أن تغدا به الخليفة الفاطمي قبل أن يتعشى به، ولما قتله

انقلبت عليه كتامة فاضطر لمحاربتها حتى أخضعها من جديد مستخدما كل أشكال المكر والخبث...وقد أدى قيام الدولة إلى انقسام ديني كبير في المغرب.

-2بناء المهدية : كعاصمة للدولة على شاطئ البحر المتوسط مباشرة ، بالقرب من تونس

تفصيل قيام الدولة الفاطمية في الجزائر وتونس والمغرب نقلا من كتاب الكامل في التاريخ

ابتداء الدولة العلوية بإفريقية

أول مَنْ وَلِيَ منهم أبو محمد عبيدالله ، قيل : إنَ نسبَهُ إلى علي بن أبي طالب ، ولم يرتابوا فيه . وعدا طائفة منهم إلى أن جعلوا نسبه يهودياً . حيث إنه لما يئسَ أعداء الإسلام من استئصال الإسلام بالقوَّة أخذوا في وضع الأحاديث الكاذبة ، وتشكيك ضعفة العقول في دينهم بأمور ، قد ضبطها المحدثون ، وأفسدوا الصحيح بالتأويل ، والطعن عليه ، فكان أول من فعل ذلك أبو شاكر ميمون بن ديصان ، صاحب كتاب الميزان في نصرة الزندقة .. فالقوا إلى من وثقوا به . ان لكل شيء من العبادات باطناً ، وان الله تعالى لم يوجب على أوليائه ، ومن عرف من الأئمة ، والأبواب صلاة ولا زكاة ولا غير ذلك ولا حرم عليهم شيئاً ، وأباحوا لهم نكاح الأمهات ، والأخوات . وإنما هذه قيود للعامة ساقطة عن الخاصة ، وكانوا يظهرون التشيع لأل النبي صلى الله عليه وسلم ليستروا أمرهم ويستميلوا العامة . وتفرَّق أصحابهم في البلاد ، وأظهروا الزهدَ والعبادةَ يغرون الناس بذلك ، وهم على خلافه . فقتلَ أبو الخطاب وجماعة من أصحابه بالكوفة . وكان اصحابه قالوا له :

إنا نخاف الجند ، فقال لهم : إن أسلحتهم لا تعمل فيكم ، فلما ابتدأوا في ضرب اعناقهم ، قال له اصحابه : ألم تقل : إن سيوفَهم لا تعمل فينا؟

فقال : إذا كان قد أراد الله فما حيلتي ، وتفرقت هذه الطائفة في البلاد وتعلموا الشعبذة . والنار نجيات ، والزور ، والنجوم ، والكيمياء فهم يحتالون على كل قوم بما ينفق عليهم وعلى العامة باظهار الزهد.

ونشأ لابن ديصان ابنٌ يقال له : عبدالله القداح ، علمه الحِيَل ، وأطلعه على أسرار هذه النحلة فحذق وتقدم . وكان بنواحي كَرَخ ، واصبهان رجل يُعرَف بمحمد بن الحسين ، وبلقب بدندان ، يتولى تلك المواضع ، وله نيابة عظيمة ، وكان يبغض العرب ويجمع مساويهم ، فسار إليه القداح ، وعرفه من ذلك . ما زاد به محله ، واشار عليه أن لا يظهر ما في نفسه ، إنما يكتمه ، ويظهر التشيع والطَعْنَ على الصحابة ، فإن الطعن فيهم طعن في الشريعة ، فإن بطريقهم وصلت إلي من بعدهم ، فاستحسن قوله وأعطاه مالاً عظيماً ينفقه على الدُّعاة إلى هذا المذهب ، فسيرهُ إلى كور الأهواز والبصرة والكوفة وطالقان وخراسان وسلمية من ارض حمص ، وفرقه في دعاته وتوفى القداح ، ودندان ، وإنما لقب القداح لأنه كان يعالج

العيون ويقدحها . فلما توفّي القدّاح قام بعده ابنه أحمد مقامه ، وصحبه إنسان يقال له : رستم بن الحسين بن حوشب بن دادان النجار من أهل الكوفة، فكانا يقصدان المشاهد.

وكان باليمن رجل اسمه محمد بن الفضل كثير المال والعشيرة من أهل الجند يتشيع فجاء إلى مشهد الحسين بن عليّ يزوره فراه أحمد ، ورستم يبكي كثيراً . فلما خرج اجتمع به احمد وطَمِعَ فيه ، لما رأى من بكائه ، وألقى إليه مذهبه فقَبِلَه ، وسير معه النَّجار إلى اليمن ، وأمره بلزوم العبادة والزهد ودعاء الناس إلى المهدي ، وأنه خارج في هذا الزمان باليمن ، فسار النَّجار إلى اليمن ونزل بِعَدَنَ بقرب قوم من الشيعة يُعرَفُون ببني موسى ، وأخذ في بيع ما معه . وأتاه بنو موسى ، وقالوا له : فيمَ جئْتَ ؟ فقال : للتجارة قالوا : لسْتَ بتاجر ، وإنما أنتَ رسول المهدي ، وقد بلغنا خبرك ، ونحنُ بنو موسى ، ولعلك قد سمعت بنا ، فانبسطْ ولا تحتشم ، فإنا أخوانك ، فاظهر أمره وقوى عزائمهم وقرب أمر المهدي ، فامرهم بالاستكثار من الخيل والسلاح ، وأخبرهم أن هذا أوان ظهور المهدي ومن عندهم . يظهر. واتصلَتْ أخبارُه بالشيعة الذين بالعراق ، فساروا اليه فكثر جمعهم ، وعَظُمَ بأسُهُم ، وأغاروا على من جاورهم وسبوا وجبوا الأموال ، وأرسل إلى من بالكوفة.من ولد عبدالله القداح هدايا عظيمة.

وكانوا أنفذوا إلى المغرب رجلين أحدهما يعرف بالحلواني والآخر يعَرفُ بأبي سفيان ، وقالوا لهما : إن المغرب ارض بور فاذهبا فاحرصا حتى يجيء صاحب البذر. فسارا فنزل أحدهما بأرض كُتامة ببلد يسمَّى مرمجنة (بتونس) والآخر بسوق حمار . فمالت قلوب أهل تلك النواحي إليهما ،

وحملوا إليهما الأموال والتُّحفِ ، فأقاما سنين كثيرة ، وماتا وكان أحدهما قريب الوفاة من الآخر.

كان أبو عبدالله الحسين بن أحمد بن محمد بن زكريا الشيعي من أهل صنعاء . وقد سار إلى ابن حوشب النجار وصَحبِه بِعَدَن ، وصار من كبار أصحابه ، وكان له علمٌ وفهم ودهاء ومكر .فلما أتى خبر وفاة الحلواني وأبي صفيان إلى ابن حوشب قال لأبي عبدالله الشيعي " : إن ارضَ كُتامةَ من المغرب قد حرثها الحلواني وأبو سفيان ، قد ماتا وليس لها غيرك ، فبادرْ فإنها موطأة ممهدةٌ لك . فخرج أبو عبدالله إلى مكة وأعطاه ابن حوشب مالاً ، وسيّر معه عبد الله بن أبي ملاحف . فلما قَدِمَ ابو عبدالله مكة سأل عن حجاج كتامة فأرشدَ إليهم ، فاجتمع بهم ، ولم يعرفَهم قصدَه ، وجلس قريباً منهم . فسمعهم يتحدثون بفضائل أهل البيت ، فأظهر استحسان ذلك ، وحدَّثهم بما لم يعلموه. فلما أراد القيام سألوه أن يأذن لهم في زيارته والانبساط معه فأذِنَ لهم في ذلك ، فسألوه : أين مقصدَك ؟ فقال : أريدُ مصر ففرحوا بصحبته . وكان من رؤساء الكتاميين بمكة رجل اسمه حُرَيث الجميلي ، وآخر اسمه موسى بن مكاد، فرحلوا وهولا يخبرهم بغرضِه ، وأظهر لهم العبادة والزهد ، فازدادوا فيه رغبة وخدموه ، وكان يسألهم عن بلادِهم وقبائلهم وعن طاعتهم لسلطان افريقية فقالوا :

ماله علينا طاعة و بيننا وبينه عشرة أيام . قال : أفتحملون السلاح ؟ قالوا : هو شغلنا .

ولم يزل يتعرَّفُ أحوالهم حتى وصلوا إلى مصر ، فلما أراد وداعهم قالوا له : أي شيء تطلب بمصرَ؟

قال : اطلب التعليم بها . قالوا : اذا كنت تقصد هذا ، فبلادنا أنفع لك ، ونحن أعرف بحقك . ولم يزالوا به حتى أجابهم إلى المسير معهم بعد الخضوع والسؤال فسار معهم . فلما قاربوا بلادهم لقِيَهُم رجال من الشيعة فأخبروهم بخبره فرغبوا في نزوله عندهم ، واقترعوا فيمن يضيفه منهم ، ثم رحلوا حتى وصلوا إلى أرض كتامة منتصف شهر ربيع الأول سنة ثمانين ومائتين ، فسأله قوم منهم أن يترل عندهم حتى يقاتلوا دونه . فقال لهم : أين يكون فخ الأخيار ؟ فتعجبوا من ذلك ولم يكونوا ذكروه له. فقالوا : عند بني سِليان فقال : إليه نقصد ثم نأتي كل قوم منكم في ديارهم ونزورهم في بيوتهم ، فأرضى بذلك الجميع . وسار إلى جبل يقال له : انكجان (تسمى بني عزيز حاليا في دائرة فرجيوة ولاية ميلة) وفيه فجُّ الأخيار فقال : هذا فجُّ الأخيار وما سمي إلا بكُم ، ولقد جاء في الآثار . أن للمهدي هجرة تنبو عن الأوطان ينصره فيها الأخيار من أهَل ذلك الزمان ، قوم مشتق اسمهم من الكتمان ، فإنهم كُتامة وبخروجكم من هذا الفجِّ يسمى فجّ الأخيار . فتسامعت القبائلَ وصنع من الحيل والمكيدات والنارنجيات ما أذهل عقولهم . وأتاه البربر من كل مكان وعَظمَ أمره إلى أن تقَاتلت كتامةُ عليه مع قبائل البربر ، وسَلِمَ من القتل مراراً وهو في كل ذلك لا يذكر اسم المهدي ، فاجتمع أهل العلم على مناظرته ، وقتَله فلم يتركه الكتاميون يناظرهم . وكان اسمه عندهم أبا عبدالله المشرقي .

وبلغ خبره إلى ابراهيمَ بن أحمد بن الأغلب أمير افريقية ، فأرسل إلى عامله على مدينة ميلة يسأله عن أمره فصغره وذكر له أنه يلبس الخشن ، ويأمر بالخير والعبادة فسكت عنه . ثم انه قال للكُتاميين : أنا صاحب البدر الذي ذكر لكم أبو سفيان ، والحلواني فازدادت محبتهم له وتعظيمهم لأمره . وتفرقت كلمة البربر ، وكتامة بسببه فأراد بعضهم قتله فاختفى ووقع بينهم قتال شديد ، واتصل الخبر بإنسان اسمه الحسن بن هارون – وهو من أكابر كتامة – فأخذ أبا عبدالله إليه ودافع عنه . ومضيا إلى مدينة ناصرون فأتته القبائل من كل مكان وعظم شأنه ، وصارت الرياسة للحسن بن هارون وسلم إليه أبو عبدالله أعنة الخيل ، وظهر من الاستتار وشهر الحروب فكان الظفر له فيها وغنم الأموال . وانتقل إلى مدينة ناصرون وخندق عليها فزحفت قبائل البربر ، إليها فاقتتلوا ، ثم اصطلحوا ، ثم اعادوا القتال . وكان بينهم وقائع كثيرة ظفر بهم وصارتَ إليه أموالهم ، فاستقامَ له أمر البربر وعامة كُتامة .

فلما تمَّ لأبي عبدالله ذلك زحف إلى مدينة ميلة فجاءه منها رجل اسمه الحسن بن أحمد ، فأطلعه على غرة البلد فقاتل أهله قتالاً شديداً ، وأخذ الأرباض ، فطلبوا منه الأمان ، ودخل مدينة ميلة) شرق الجزائر)، وبلغ الخبر أمير أفريقية – وهو حينئذ إبراهيم بن أحمد – فنفذ ولده الأحول في اثني عشر الفاً ، وتبعه مثلهم ، فالتقيا فاقتتل العسكران ، فانهزم أبو عبدالله ، وكثر القتل في أصحابه وتبعه الأحول ،وسقط ثلج عظيم حال بينهم . وسار أبو عبدالله إلى جبل إنكجان ، فوصل الأحوال إلى مدينة ناصرون ،فاحرقها وأحرق مدينة ميلة ولم يجد بها أحداً.

وبنى أبو عبدالله بانكجان دار هجرة ، فقصده أصحابه . وعاد الأحول إلى أفريقية ، فسار أبو عبدالله بعد

رحيلهم فغَنِمَ ما رأى مما تخلَّف عنهم ، وأتاه خبر وفاة ابراهيم فسرّ به . ثم أتاه خبر قتل أبي العبّاس وولده وولاية زيادة الله ، واشتغاله باللهو واللّعب ، فاشتد سروره.

وكان الأحول قد جمع جيشاً كثيراً أيام أخيه أبي العباس ولقي أبا عبدالله ، فانهزم الأحول ، وبقي الأحول قريبا منه يقاتله ويمنعه من التقدم.

فلما ولي أبو مضر زيادةَ الله أفريقية ، أحضر الأحول وقَتَلَهُ كما ذكرناه ، ولم يكن أحولاً وإنما كان يكسر عينه ، إذا أدام النظرَ فلقبَ به ، فلما قتِلَ انتشرت حينئذ جيوش أبي عبدالله في البلاد ، وصار أبو عبدالله يقول : المهدي يخرجُ في هذه الأيام ويملك الأرض . فيا طوبى لمن هاجر إلف وأطاعني.

ويغري الناس بأبي مضر ويعيبه . وكان كل من عند زيادة الله من الوزراء فلا يسوءهم أن يظفر أبو عبدالله لاسيّما مع ما كان يذكرُ لهم من الكرامات التي للمهدي من احياء الموتى ، ورد الشمس من مغربها ، وملكهِ الأرض ، بأسرها . وأبو عبدالله يرسل اليهم ويسحرهم ، ويعدهم .

لما توفى عبدالله بن ميمون القداح ،ادعى ولده انهم من ولد عقيل بن أبي طالب ، وهم مع هذا يسترون ويسرون أمرهم ويخفون اشخاصهم . وكان ولدُه أحمد هو المشارُ إليه منهم ، فتوفي وخلَفَ ولده محمداً . وكان هو الذي يكاتبه الدعاةُ في البلاد .

وتوفيً محمد وخلَّفَ احمد والحسين . فسار الحسين إلى سلمية من ارض حمص وله بها ودائع وأموال من ودائع جده عبدالله القداح ، ووكلاء وغلمان ، وبقي ببغداد من أولاد القداح أبو الشلغلغ . وكان الحسين يدعي أنه الوصي ، وصاحب الأمر والدعاة باليمن والمغرب ، يكاتبونه ويراسلونه ، واتفق أنه جرى بحضرته حديث النساء بسلمية، فوصفوا له امرأة رجل يهودي حداد مات عنها زوجها – وير في غاية الحسن – فتزوجها ولها ولد من الحداد ، يماثلها في الجمال ، فأحبها وحسَّن موقعها معه ، وأحمتَ ولدها وأدبه ، وعلَّمه ، فتعلم العلم وصارت له نفس عظيمة ، وهمة كبيرة . فمن العلماء من اهل هذه الدعوة من يقول : إن الامام الذي كان بسلمية –وهو الحسين – مات ولم يكن له ولد فعَهِدَ إلى ابن اليهودي الحداد – وهو عبيدالله – وعرفَهُ اسرارَ الدعوة من قولٍ وفعلٍ ، وأين الدعاة ، وأعطاه الأموال بى العلامات . وتقدُّم إلى أصحابه بطاعته ، وخدمته ، وأنه الامام والوصي . وزوجه ابنة عمه أبي الشلغلغ ، . وجعل لنفسه نسباً وهو عبيدُ الله بن الحسين بن عليّ بن موسى بن جعفر بن محمد بن عليّ بن الحسين بن علىّ بن أبي طالب ، وبعض الناس يقولون –وهم قليل – أن عبيدَ الله هذا من ولد القداح . وهذه الأقوال فيها ما فيها .

فياليت شعري ما الذي حمل أبا عبدالله الشيعي وغيره ممن قام في إظهار هذه الدعوة ، حتى يخرجوا هذا الأمر من أنفسهم ، ويسلّموه إلى ولد يهودي ؟

وهل يسامح نفسه بهذا الأمر من يعتقده ديناً يثابُ عليه ؟ قال : فلقَا عَهِد الحسين إلى عبيدالله قال له : إنك ستهاجر بعدي هجرة بعيدة ، وتلقى محناً شديدة . فتوفّي الحُسين ، وقام بعده عبيدَ الله ، وانتشرت دعوته وبذلَ الأموال خلاف ما تقدم .

وأرسل إليه أبو عبدِ الله رجالاً من كُتامة من المغرب ، ليخبروه بما فتح الله عليه ، وأنهم ينتظرونه . وشاع خبره عند الناس أيامَ المكتفي ، فطلب ، فهرب هو وولده أبو القاسم نزار ، الذي وُلي بعده ، وتلقب بالقائم – وهو يومئذ غلام – وخرج معه خاضته ، ومواليه يريد المغرب ، وذلك أيام زيادة الله . فلما انتهى إلى مصر ، أقام مستتراً بزيِّ التجارِ.

كان عامل مصر حينئذ عيسى النوشري فأتته الكتب من الخليفة بصفته وحليته وأمر بالقبض عليه ، وعلى كلٍ من يشبهه . وكان بعضُ خاصةِ عيسى متشيعاً بالانصراف ، فخرج من مصر مع اصحابه ، ومعه أموال ،كثيرة فأوسع النفقة على صحبه فأخبر المهديِّ وأشار عليه فلما وصل الكتابُ إلى النوشري ، فرَّق الرُّسُلَ في طلب المهدي ، وخرج بنفسه ، فلحِقَهُ فلما رآه لم يشكّ فيه ، فقبض عليه ، ونزل ببستان ووكل به فلما حضر الطعامِ دعاه ليأكلَ ، فأعلمه أنه صائم فرَّق له وقال له : أعلمني بحقيقة حالِكَ حتى أطلقك ، فخوّفهُ بالله تعالى ، وانكر حالَهُ ولم يزلْ يخوّفَهُ ويتلطفُه ، فأطلقَهُ ، وخلى سبيله . وأراد أن يرسل معه من يوصله إلى رفقته فقال : لا حاجة لي في ذلك ، ودعا له ، وقيل : أنه أعطاه في الباطن مالاً حتى أطلقه ، فرجع بعض أصحاب النوشري عليه باللوم ، فنَدِمَ على إطلاقه ، وأراد إرسال الجيش وراءه ليردوه.

وكان المهدي لما لَحِقَ أصحابه رأى ابنه أبا القاسم ، قد ضيَّع كلباً كان له يصيد به – وهو يبكي عليه – فعرّفه عبيده انهم تركوه في البستان الذي كانوا فيه . فرجع المهدي بسبب الكلب حتى دخل البستان ومعه عبيده ، فرآهم النوشري ، فسأل عنها فقيل : إنه فلان . وقد عاد بسبب كذا وكذا . فقال النوشري لاصحابه : قبحكُم الله اردتم أن تحملوني على قتل هذا حتى آخذه ، فلو كان يطلب ما يقال أو كان مريباً لكان يطوي المراحل ، ويخفي نفسه ، ولا كان رجع في طلب كلب ، وتركه . وجدَّ المهديُّ في الهرب ، فلحِقَه لصوصٌ بموضع – يقال له : الطاحونة – فأخذوا في متاعه .

وكانت عنده كتب وملاحم لآبائه ، فأخِذَت ، فعظم أمرها عليه فيُقالُ : إنه لما خرج ابنه أبو القاسم في المرة الأولى إلى الديار المصرية ، أخذها من ذلك المكان وانتهى المهديُّ وولده إلى مدينة طرابلس . وتفرَّقَ مِنْ صحبه من التجار . وكان في صحبتِهِ أبو العبّاس ، أخو أبي عبد الله الشيعي ، فقدمه المهدي إلى القيروان ببعض ما معه ، وأمره أن يلحق بكتامة . فلما وصل أبو العباس إلى القيروان ، وجد الخبر قد سبقه إلى زيادة الله بخبر المهدي فسأل عنه رفقته ، فأخبروا أنه تخلف بطرابلس ، وأن صاحبه أبا العباس بالقيروان ، فأخذ أبو العباس ، وقرر، فأنكر وقال : " إنما أنا رجل تاجر صحبْت رجلاً في القفل فحبسه "وسمع المهديّ ، فسار إلى قسطيلة . ووصل كتاب زيادة الله إلى عامل طرابلس بأخذه ، وكان المهدي قد

أهدى له واجتمع به ، فكتب العامل يخبره أنه قد سار ولم يدركْهُ . فلما وصل المهديُّ إلى قسطيلة، ترك قصد أبي عبد الله الشيعي ، لأن أخاه أبا العباس كان قد اخذَ. فعلم أنه إذا قصد أخاه تحققوا الأمر ، وقتلوه ، فتركه وسار إلى سَجِلْماسة . ولما سار من قسطيلة وصل الرُّسلُ في طلبه ، فلم يوجدْ ووصل إلى سجِلْماسة ، فأقام بها، وفي كل ذلك عليه العيون في طريقه.

وكان صاحب سُجلماسة ، رجلاً يسمى اليسع بن مدرار، فأهدى له المهدي وواصله ، فقرّبهُ اليسعُ وأحبه – فأتاه كتاب زيادة الله يعرفَهُ أنه الرجل الذي يدعو إليه أبو عبد الله الشيعي ، فقبض عليه وحبسه . فلم يزلْ محبوساً حتى أخرجه أبو عبد الله الشيعي ، على ما نذكره.

ذكر استيلاء أبي عبد الله على أفريقية وهَرَبْ زيادة الله أميرها

قد ذكرنا من حال أبي عبد الله ما تقدم . ثم ان زيادة الله لما رأى استيلاء أبي عبد الله على البلاد، وأنه قد فتح مدينة ميلة . ومدينة سطيف وغيرهما . أخذ في جمع العساكر ، وبذل الأموال . فاجتمعت إليه عساكر عظيمة . فقدمَ عليهم إبراهيم بن خنيش –وهو من أقاربه –وكان لا يعرفُ الحربَ فبلغت عدَّة جيشه أربعين ألفاً وسَلم إليه الأموال والعدد . ولم يترك بأفريقية شجاعاً إلّا أخرجه معه . وسار إليه فانضاغف إليه مثل جيشه.

فلما وصل قسطينة الهواء –وهي مدينة قديمة حصينة –نَزِلَ بها وأتاه كثير من كتامة الذين لم يطيعوا أبا عبد الله ، فَقَتَل في طريقه كثيراً من أصحاب أبي عبد الله . وخاف أبو عبد الله منه وجميع كُتامة . وأقام بقسطينة ستة أشهر، وأبو عبد الله متحصن في الجبل . فلما رأى إبراهيمُ أبا عبد الله لا يتقدم إليه ، بادر وزحف بالعساكر المجتمعة إلى بلدٍ اسمه كومة ، فأخرج إليه أبوعبد الله خيلاً اختارها ليختبرَ نزوله ، فوافاها بالموضع المذكور . فلما رأى إبراهيم الخيل قصد إليها بنفسه ولم يصحبه إليها احد من جيشه . وكانت اثقال العسكر على ظهور الدواب لم تحط ، ونشبت الحرب ، واقتتلوا قتالا شديداً ، واتصل الخبر بأبي عبد الله ، فزحف بالعساكر، فوقعت الهزيمة على إبراهيم ومن معه ، فجرح وعقر فرسه ، وتمت الهزيمة على الجيش جميعه ، وأسلموا الأثقال بأسرِها ، فغنمها أبو عبد الله وقتل منهم خلقاً كثيراً . وتم أمر ابراهيم إلى القيروان ، فشاشت بلاد أفريقية وعظم أمر أبي عبد الله ، واستقرتْ دولته ، وكتب أبو عبد الله كتاباً إلى المهدئ – وهو في سجن سُجلماسة – يبَشرهُ ، وسير الكتَاب مع بعض ثقاته ، فدخل السجن في زي قصَّاب يبيع اللحمَ ، فاجتمع به وعرفَهُ ذلك .

وسار أبو عبد الله إلى مدينة طبنة فحصرها، ونصب عليها الدبابات ، ونقب برجاً وبدنة فسقط السور بعد قتال شديد، ومَلَكَ البلد . فاحتمى المقدمون بحصن البلد، فحصرهم فطلبوا الأمان فأمّنَهُم وأمَّنَ أهل البلد . وسار إلى مدينة بلزمة ، وكان قد حصرها مراراً كثيرة فلم يظفرْ بها، فلما حصرها الآن ضيق عليها ،

وجذَ في القتال ، ونصب عليها الدبابات، ورماها بالنار، فأحرقها وفتحتها بالسيف ، وقتل الرجال وهدم الاسوار . واتصلت الأخبار بزيادة الله فعظَم عليه ، وأخذ في الجمع والحشد . فجمع عسكراً عدتهم اثنا عشر ألفاً ، وأمر عليها هارون بن الطبني . فسار واجتمع معه خلق كثير وقصد مدينة دار ملوك ، وكان اهلها قد اطاعوا أبا عبد الله ، فقتل هارون أهلها وهدم الحصن . ولقيه في طريقه خيل لأبي عبد الله كان قد أرسلها ليختبروا عسكره ، فلما رآها العسكر اضطربوا ، وصاحوا صيحة عظيمة ، وهربوا من غير قتالٍ فظنَ أصحاب أبي عبد الله أنها مكيدة. فلما ظهر أنها هزيمة استدركوا الأمر، ووضعوا السَّيفَ فما يحصى من قتلوا. وقتل هارون أمير العسكر . وفتح ،أبو عبد الله مدينة تيجس صلحاً ، فأشتدَّ الأمر حينئذ على زيادة الله وأخرج الأموال وجيش الجيوش ، وخرج بنفسه إلى محاربة أبي عبد الله ، فوصل إلى الأربس (في تونس) في سنة خمس وتسعين ومائتين . فقال له وجوه دولته ، إنك تغرِّرُ بنفسك فإن يكن عليك لا يبقى لنا ملجأ، والرأي أن ترجع إلى مستقر مُلكِكَ ، وترسلَ الجيش مع من تثق إلية، فإن كان الفتح لنا فنصل إليك ، وان كان غير ذلك فتكون ملجأ لنا ، ورجع ففعل ذلك وسيَّر الجيش ، وقدم عليه رجلاً من بني عمه يقال له :إبراهيم بن أبي الأغلب ، وكان شجاعاً، وبلغ أبا عبد الله الخبر، وكان أهل باغاية(شرق الجزائر) قد كاتبوه بالطاعة ، فسار إليهم ، فلما قَرُب منها هرب عاملها إلى الأربس ، فدخلها أبو عبد الله ، وترك بها جنداً وعاد إلى إنْكِجَان. ووصل الخبر إلى زيادة الله فزاده غماً وحزناً فقال له انسان كان يضحكه : " يا مولانا لقد عملت شعراً ، فعسى تجعل من يلحنه ، وتشرب عليه ، وأتركْ هذا الحزن ". فقال : ما هو؟

فقال المضحك للمغنين : غنوا شعر كذا وقولوا بعد فراغ كل بيت:

اشربْ واسقينا من القرنِ يكفينا

فلما غنؤا، طَرِبَ زيادة الله وشَرِبَ وانهمك في الأكل والشُّربِ والشهوات . فلما رأى ذلك أصحابه ساعدوه على مرادِهِ . ثم إنّ أبا عبد الله أخرج خيلاً إلى مدينة مجانة فافتتحها عنوةً وقتل عاملها وسيَّر عسكراً آخر إلى مدينة تيفاش ، فملكها وأمَّن اهلها.

وقصد جماعة من رؤساء القبائل أبا عبد الله يطلبون منه الأمان فأمَّنهم ، وسار بنفسه إلى مسكيانة ثم إلى تَبسَّة(شرق الجزائر) ثم إلى مدبرةٍ ، فوجد فيها أهل قصر الأفريقي ، ومدينة مرمجنة ، ومدينة مجانة واخلاطاً من الناس قد التجؤوا إليها وتحصنوا فيها –وهي حصينة - فنزل عليها وقاتلها ، فأصابه علة الحصى، وكانت تعتاده ، فشغل بنفسه ، وطلب أهلها الأمان فأفَنهم بعض أهل العسكر ، ففتحوا الحصن ، فدخلها العسكر ووضعوا السيف وانتهبوا. وبلغ ذلك أبا عبد الله فعظم عليه . ورحل ، وبلغ ابراهيم بن أبي الأغلب أمير الجيش الذي سيّره زيادة الله ، أن أبا عبد الله يريدُ أن يقصدَ زيادة الله برقادة، ولم يكن مع زيادة الله كبير عسكر، فخرج من الأربس ونزل دردمين . وسير أبو عبد الله سريةً إلى دردمين ، فجرى بينهما وبين اصحاب زيادة الله قتال فقتل من أصحاب أبي عبد الله جماعة وانهزم الباقون . واستبطأ أبو

عبد الله خبرهم فسار في جميع عساكره ، فلقي أصحابه منهزمين ، فلما رأوه قوَيت قلوبُهم ، ورجعوا وكروا على أصحاب إبراهيم ، وقتلوا منهم جماعة ، وحجز الليل بينهم . ثم سار أبو عبد الله إلى قسطيلة، فحصرها فقاتله أهلها ثم طلبوا الأمان فأفنهم ، وأخذ ما كان لزيادة الله فيها من الأموال والعدد، ورحل إلى قفصة فطلب أهلها الأمان فأضنهم . ورجع إلى باغاية، فترك بها جيشاً وعاد إلى جبل إنكجان . فسار إبراهيم بن أبي الأغلب في جيشه إلى باغاية، وحصرها . فبلغ الخبر أبا عبد الله ، فجمع عسكره ،وسار مجدًّا إليها ووجَه اثني عشر الف فارس ، وأمر مقدمهم أن يسير إلى باغاية، فإن كان ابراهيم قد رحل عنها فلا يجاوز فج العرعار . فمضى الجيشُ ، وكان أصحاب أبي عبد الله الذين في باغاية قد قاتلوا عسكر إبراهيم قتالاً شديداً، فلما رأى صبرهم عَجِبَ ، هو وأصحابه منهم فأرعب ذلك قلوبهم . ثم بلغهم قرب العسكر منهم فعاد ابراهيم بعساكره ، فوصل عسكر أبي عبد الله فلم يَرَوا أحداً فنهبوا ما وجدوا وعادوا ، ورجع ابراهيم إلى الأربس.

ولما دخل فصل الربيع وطاب الزمان جمع أبو عبد الله عساكره فبلغت مائتي ألف فارس وراجل واجتمع من عساكر زيادة الله بالأربس ، مع إبراهيم ما لا يحصى ، وسار أبو عبد الله أول جمادى الآخرة سنة ست ولسعين ومائتين فالتقوا ، واقتتلوا أشدَّ قتال ، وطال زمانه وظهر أصحاب زيادة الله.

فلما رأى ذلك أبو عبد الله ، اختار من أصحابه ستمائة رجل ، وأمر أصحابه ان يأتوا عسكر زيادة الله من خلفهم ، فمضوا لما أمرهم في الطريق الذي أمرهم بسلوكه . واتُفِقَ أنَّ إبراهيم فعل مثل ذلك ، فالتقى الطائفتان فاقتتلوا في مضيق هناك . فانهزم أصحاب إبراهيم ووقع الصَّوت في عسكره بكمين أبي عبد الله ، وانهزموا وتفرقوا وهرب كل قوم إلى جهة بلادهم . وهرب إبراهيم وبعض من معه إلى القيروان وتبعهم اصحاب أبي عبد الله يقتلون ويأسرون ، وغنموا الأموال والخيل والعدد، ودخل أصحابه مدينة الأربس فقتلوا بها خلقاً عظيماً . ودخل كثيرٌ من أهلها الجامع ، فقتل فيه أكثر من ثلاثة آلاف ، ونهبوا البلد وكانت الوقعة أواخر جمادى الآخرة ، وانصرف أبو عبد الله إلى قمودة فلما وصل خبر الهزيمة إلى زيادة الله ، هربَ إلى الديار المصرية، وكان من أمره ، ما تقدّم ذكره . ولما هرب زيادة الله هرب أهل مدينة رقادة على وجوههم في الليل إلى القصر القديم وإلى القيروان . وسوسة ودخل أهل القيروان رقادة ونهبوا فيها ، وأخذَ القويّ الضعيفَ ، ونهبت قصور بني الأغلب وبقي النهب ستة أيام ووصل إبراهيم بن أبي الأغلب إلى القيروان ، فقصد قصر الامارة ، واجتمع إليه أهل القيروان ، ونادى مناديه بالأمان وتسكين الناس . وذكر لهم أحوال زيادة الله وما كان عليه حتى أفسد ملكه ، وصَغُرَ أمر أبي عبد الله الشيعي ، ووعدهم أن يقاتل عنهم ويحمي حريمهم وبلدهم ، وطلب منهم المساعدة بالسمع والطاعة والأموال فقالوا : "إنما لْخن فقهاء وعامة وتجار وما في أموالنا ما يبلغ غرضك وليس لنا بالقتال طاقة " . فأمرهم بالانصراف . فلما خرجوا من عنده وأعلموا الناس بما قاله صاحوا به أخرُجْ عنا فما لَكَ عندنا سمعٌ ولا طاعةٌ ، وشتموه فخرج عنهم وهم يرجمونَهُ.

ولما بلغ أبا عبد الله هرب زيادة الله كان بناحية سبيبة ورحل فنزل بوادي النمل ، وقَدِمَ بين يديه عروبة بن يوسف . وحسن بن أبي خنزير في ألف فارس إلى رقادة، فوجدوا الناس ينهبون ما بقي من الأمتعة والأثاث ، فأمَّنوهم ولم يتعرضوا لأحد . وتركوا لكل واحد ما حمله ، فأتى الناس إلى القيروان ، فأخبروه الخبر ففرح أهلها .

وخرج الفقهاء ووجوه البلد إلى لقاء أبي عبد الله فلقوه وسلَّموا عليه وهنأوه بالفتح فرد عليهم رداً حسناً . وحدثهم وأعطاهم الأمان ، فأعجبهم ذلك وسرهم . وذموا زيادة الله ، وذكروا مساويه ، فقال لهم : " ما كان إلّا قوياً وله منعة ودولة شامخة وما قصَّر في مدافعته ، ولكن أمر الله لا يعاند ولا يدافع لم فأمسكوا عن الكلام ورجعوا إلى القيروان.

ودخل رقادة(أ) يوم السبت مستهل رجب من سنة ست وتسعين ومائتين ، فنزل ببعض قصورها وفرق دُورَها على كتامة ولم يكن بقي أحدٌ من أهلها فيها ،

وأمر فنوديَ بالأمان فرجع الناس إلى أوطانهم ، وأخرج العمال إلى البلاد، وطلب أهل الشرَّ فقتلهم .

وأمر أن يجمع ما كان لزيادة الله من الأموال والسِّلاح وغير ذلك . فاجتمعَ كثير منه وفيه كثير من الجواري لهنَّ مقدارٌ وحظ من الجمال ، فسأل عمن كان يكفلهن ، فذكر له إمرأة صالحة كانت لزيادة الله .

فأحضرها وأحسن إليها وأمرها بحفظهنَّ ، وأمر لهن بما يصلحهن ولم ينظرْ إلى واحدة منهن ، ولما حضرت الجمعة أمر الخطباء بالقيروان ورقادة ، فخطبوا ولم يذكروا أحداً ، وأمر بضرب السكة وأن لا ينقش عليها اسم ، ولكنَه جعل مكان الاسم من وجه بلغت حجة الله ومن الوجه الآخر تفرق أعداءُ الله .

ونقش على السلاح عدة في سبيل الله ، ووسَمَ الخيل على أفخاذها الملك لله .

وأقام على ما كان عليه من لبس الدون الخشن والقليل من الطعام الغليظ.

ذكر مسير أبي عبد الله إلى سجلماسة(ا) وظهور المهدي

لما استقرَّتْ الأمور لأبي عبد الله في رقادة وسائر بلاد أفريقية أتاه أخوه أبو العباس محمد، ففرح به وكان هو الكبير . فسار أبو عبد الله في رمضان من السنة من رقادة، واستخلف على أفريقية أخاه أبا العباس . وأبا زاكي ، وسار في جيوش عظيمة فاهتز المغرب لخروجه ، وخافته زناتة وزالت القبائل عن طريقه وجاءته رسلهم ، ودخلوا في طاعته : فلما قَرُبَ من سُجلماسة ، وانتهى خبره إلى اليُسع بن مدرار ، أمير سجلماسة أرسل إلى المهدي – وهو حبسه على ما ذكرناه – يسأله عن نسبه وحاله ، وهل إليه قصد أبو عبد الله ، فحلف له المهدى أنه ما رأى أبا عبد الله ولا عَرَفَهُ ، وانما أنا رجل تاجر . فاعتقله في دار وحده ، وكذلك فعل بولده أبو القاسم وجعل عليهما الحرس . وقرّرَ ولده أيضاً ، فما حالَ عن كلام أبيه ، وقرر رجالاً كانوا معه ، وضربهم ،فلم يُقروا بشيء ، وسمع أبو عبد الله ذلك فشق عليه ، فأرسل إلى اليُسعَ

يتلطفه ، وأنه لم يقصد الحرب وإنما له حاجة مهمة عنده ، ووعده الجميل فرمى الكتاب ، وقتل الرُّسلَ . فعاوده بالملاطفة خوفاً على المهديّ ولم يذكره له فقتل الرسل ايضاً ، فأسرع أبو عبد الله في السَّيرِ، ونزل عليه فخرج إليه اليُسع وقاتله يومه ذلك ، وافترقوا فلما جنهم الليل ، هرب اليُسغ وأصحابه من أهله وبنى عمه ، وبات أبو عبد الله ومن معه في غمٍ عظيم لا يعلمون ما صنع بالمهديّ وولده .
فلما أصبح خرج إليه أهل البلاد وأعلموه بهرب اليُسع ، فدخل هو وأصحابه البلد وأتوا المكان الذي فيه المهدي فاستخرجه واستخرج ولده فكانت في الناس مسرةٌ عظيمة كادت تذهب بعقولهم !، فأركبهما ، ومشى هو ورؤساء القبائل بين أيديهما، وأبو عبد الله يقولُ للناس : هذا مولاكم وهو يبكي من شدة الفرح !، حتى وصل إلى فسطاط قد ضرب له فنزل فيه . وأمر بطلب اليُسع فطلب ، فأدرك ، فأخِذَ وضُرِبَ بالسياط ثم قتل . فلما ظهر المهدي أقام بسُجلماسة أربعين يوماً ، وسار إلى أفريقية ، وأحضر الأموال من إنكجان فجعلها أحمالاً وأخذها معه .

ووصل إلى رُقادة العشر الأخير من ربيع الآخر.من سنة سبع وتسعين ومائتين . وزال مُلكُ بني الأغلب ، ومُلكُ بني مدرار الذين منهم اليُسع ، وكان لها ثلاثون ومائة سنة منفردين بسجلماسة . وزال مُلكُ بني رستم من تاهرت ولهم ستون ومائة سنة تفردوا بتاهرت ، ومَلك المهدي جميع ذلك . فلما قرب من رقادة تلقاهُ أهلها وأهل القيروان وأبو عبد الله ، ورؤساء كتامة مشاة بين يديه ، وولده خلفه ، فسلَّموا عليه ، فرد جميلاً وأمرهم بالانصراف ونزل بقصر من قصور رقادة . وأمر يوم الجمعة بذكر اسمه في الخطبةِ في البلاد، وتلقب بالمهدي أمير المؤمنين .

وجلس بعد الجمعة رجلٌ يُعرف بالشريف ، ومعه الدعاة ، وأحضروا الناس بالعنف والشدة ، ردعوهم إلى مذهبهم ، فمن أجاب أحسنَ إليه ، ومن أبى حُبِسَ ، فلم يدخل في مذهبهم إلا بعض الناس – وهم قليلُ – وقَتَلَ كثير ممن لم يوافقهم على قولهم . وعرض عليه أبو عبد الله جواري زيادة الله ، فاختار منهن كثيراً لنفسه ، ولولده أيضاً وفرَّق ما بقي على وجوهِ كُتامة . وقسم عليهم أعمال أفريقية، ودونَ الدواوين وجبى الأموال ، واستقرتْ قدمه ودانت له أهل البلاد، واستعمل العمال عليها جميعها ، فاستعمل على جزيرة صقلية الحسن بن أحمد بن أبي خنزير .

المهدي يقتل أبا عبد الله

في سنة ثمان وتسعين ومائتين ، قُتِلَ أبو عبد الله الشّيعي ، قتله المهدي عبيدَ الله . وسبب ذلك أنّ المهدي لما استقامت له البلاد ودانت له العِبادَ وباشر الأمور بنفسه ، وكفّ يد ابي عبدُ الله ويدُ اخيه أبي العبّاس داخل أبا العباس الحسد، وعظم عليه الفِطَام عن الأمر والنهي ، والأخذ والعطاء . فأقبل يزري على المهدي في مجلس أخيه ، ويتكلّم فيه وأخوه ينهاه ، ولا يرض فعله فلا يزيده ذلك إلا لجاجاً . ثم أنه أظهر

أبا عبد الله على ما في نفسه وقال له : ملكت أمراً فجئت بمن أزالك عنه ، وكان الواجب عليه أن لا يسقط ، حقك ولم يزل حتى أثر في قلب أخيه ، فقال يوماً للمهدي : " لو كنت تجلس في قصرك وتتركني مع كُتامة امرهم ، وأنهاهم لأني عارف بعاداتهم ، لكان أهيب لك في أعين الناس."

وكان المهدي سمع شيئاً مما يجري بين أبي عبد الله وأخيه ، فتحقق ذلك غير أنه ردّ رداً لطيفاً . فصار أبو العباس يشير إلى المقدمين بشيء من ذلك فمن رأى منه قبولاً كشف له ما في نفسه ، وقال : ما جازاكم على ما فعلتم . وذكر لهم الأموال التي أخذها المهديِّ من إنكجان ، وقال : هلّا قسمها فيكم وكل ذلك يتصل بالمهدي وهو يتغافلُ ، وأبو عبد الله يداري ، ثم صار أبوالعباس يقول : إن هذا ليس الذي كنا نعتقد طاعته ، وندعو إليه لأن المهتدي يختم بالحخة، ويأتي بالآيات الباهرة . فأخذَ قوله بقلوب كثير من الناس منهم انسان حمن كُتامة ، يقال له : شيخ المشايخ . فواجه المهدئ بذلك وقال : إنْ كنْتَ المهديَّ ، فأظهرْ لنا اية فقد شككنا فيك ، فقتله المهدي . فخافه أبو عبد الله وعَلِمَ أنّ المهديَّ قد تغير عليه ، فاتفق هو وأخوه ومن معهما على الاجتماع عند أبي زاكي ، وعزموا على قتل المهديَ ، واجتمع معهم قبائل كُتامة إلّا قليلاً منهم . وكان معهم رجلٌ ، يظهر أنه منهم وينقل ما يجري إلى المهديِّ ، ودخلوا عليه مراراً، فلم يجسروا على قتله . فاتفق أنهم اجتمعوا ليلةً عند أبي زاكي ، فلما أصبحوا لبِسَ أبو عبد الله ثوبه مقلوباً، ودخل على المهدئ فرأى ثوبه فلم يعرفه به . ثم دخل عليه ثلاثة أيام والقميصُ بحاله فقال له المهديُ : " ما هذا الأمر الذي أذهلك عن إصلاح ثوبك ، فهو مقلوب منه ثلاثة أيام فعلمت أنك ما نزعته " . ؟

فقال : ما علمت بذلك إلا ساعتي هذه.

قال : أين كنت البارحة ، والليالي قبلها ؟ فسكت أبو عبد الله

فقال: أليس بتَّ في دار أبي زاكي ؟ قال : بلى

قال : وما الذي أخرجَك من دارِكَ ؟قال: خفْتُ ،

قال : وهل يخاف الإنسانَ إلا من عدوه ؟

فعلم أن أمرَهُ ظهر للمهديِّ فخرج وأخبر أصحابه ، وخافوا وتخّفوا عن الحضور .

فذكر ذلك للمهديِّ وعنده رجل يقال له : ابن القديم ، وعنده أموالٌ كثيرة من أموال زيادةَ الله فقال : يا مولاي إن شئت أتيتكَ بهم . ومضى فجاء بهم . فعَلِمَ المهدي صحةَ ما قِيلَ عنه ، فلاطفهم وفرَّقهم في البلاد. وجُعِلَ أبا زاكي والياً على طرابلس ، وكتب إلى عاملها أن يقتله عند وصوله . فلما وصَلَها قتلَهُ عاملها ، وأرسل رأسه ،إلى المهديِّ فهرب ابن القديم ، فأخذ فأمر المهديُّ بقتله فقُتِل ، وأمر المهديُ عروبةً ورجالاً معه أن يرصدوا أبا عبد الله وأخاه أبا العباس ، ويقتلوهما . فلما وصلا إلى قُرب القصرِ حمل عروبةَ على أبي عبد الله فقال : لا تفعلْ يا بني

فقال : الذي أمرتنا بطاعته أمرَنا بقتلك ، فقُتِلَ هو وأخوه وكان قتلهُما في اليوم الذي قُتِلَ فيه أبو زاكي ، فقيل : إن المهديِّ صلى على أبي عبد الله وقال : رحمك الله أبا عبد الله وجزاك خيراً بجميل سعيك! "

موقف علماء المغرب من هذا المد الجديد:

لكن هل حل هذا المذهب أرض المغرب على الرحب والسعة، وتلقاه أهلها بالبشر والترحيب؟

لقد نزل أبو عبد الله الشيعي في قبيلة كتامة، وكان لهذه القبيلة مواصفات جعلتها ترحب بهذا الفكر الجديد، وتتبناه، لسببين رئيسيين:

-1كونها قبيلة بدوية يغلب عليها الجهل، ويتبين ذلك من عاداتها التي ذكرها الشريف الإدريسي وغيره.

-2تقطن منطقة جبلية بجبل إيكجان، قرب مدينة سطيف، التي تقع في شرق الجزائر. فكانت هذه القبيلة النواة الأولى التي اعتمد عليها الشيعي في تقوية نفوذه ونشر سلطانه، وقد كانت قد تشربت المذهب منذ وصول الداعيان الحلواني وأبو سفيان إليها. فليس من شك في أن كتامة تشيعت واقتنعت بهذا المذهب وحاربت لأجله ودانت به. وقد كانت كما يقول الشريف الإدريسي قبائل كثيرة، لكنها اضمحلت مع الزمن، قال: (ولم يبق من كتامة في وقت تأليفنا لهذا الكتاب إلا نحو أربعة آلاف رجل) أي في القرن السادس فالشريف توفي سنة ٥٦٠ هجرية.

لكن الوضع في حواضر إفريقية كان مختلفا...

فلقد جابه العلماء هذا المذهب الشيعي، وكفروه ورفضوه، وشهدت القيروان كبرى حواضر المغرب، صراعا واسعا، على المستوى الفكري والسياسي بين المذهبين.

فقد نشب صراع بين دعاة عبيد الله المهدي وبين العامة من أهل القيروان، بسبب ما بدأوا يدعون إليه وينشرونه، حتى اضطر عبيد الله إلى كفهم عن دعوة العامة إلى التشيع، تسكينا للوضع.

وبعد ذلك بدأ يحاول استقطاب العلماء واستمالتهم، فكان يدعوهم إلى مجالسته ومناظرته.

وقد اشتهرت المناظرات بين أبي العباس أخي عبيد الله وبين الشيخ سعيد بن محمد بن الحديد، وكان يغلبه بالحق، ويظهر عليه، حتى اشتهر بذلك، وحتى قال له ابنه: (اتق الله في نفسك ولا تبالغ في مناظرة الرجل،فقال له حسبي من له غضبت وعن دينه ذببت(

ثم بدأت الأمور تتوتر أكثر فأكثر، وبدأت الدعوة إلى التشيع تفرض نفسها بالقوة، وهنا وقف علماء القيروان وقفتهم الشهيرة التي سجلها لهم التاريخ، وذبوا عن دين الله واسترخصوا أرواحهم في سبيل ذلك:

ولعل هذا النص يوضح لنا بعض ملامح هذه المرحلة:

)كان عبد الله المعروف بالمحتال، صاحب القيروان، شدّ في طلب أهل العم، ليشرّقهم، فطلب الشيخ أبا سعيد ابن أخي هشام. وأبا محمد التبّان وأبا القاسم بن شبلون، وأبا محمد ابن أبي زيد، وأبا الحسن القابسي، رضي الله عنهم. فاجتمعوا في مسجد ابن اللجام واتفقوا على الفرار. فقال لهم ابن التبان: أنا أمضي إليه، وأكفيكم مؤونة الاجتماع، ويكون كل واحد منكم في داره. ويقال إنهم أرادوا السير إلى عبد الله. فقال لهم: أنا أمضي إليه، أبيع روحي من الله دونكم، لأنكم إن أتي عليكم، وقع على الإسلام وهن. ويقال إنه قال لعبد الله: لما دخل عليه جئتك عن قوم إيمانهم مثل الجبال، أقلّهم يقيناً أنا. فحدث بعض من حضر، قال: كنت مع عبد الله، وقد احتفل مجلسه بأصحابه، وفيهم الداعيان :أبو طالب، وأبو عبد الله. لعنهم الله. وقد وجه إلى ابن التبان، فإذا به داخل، وعيناه توقدان، كأنهما عينا شجاع. فدخل وسلم. فقال: أبطأت عنا يا أبا محمد. فقال :في شغلك، كتاب ألفته في فضائل أهل البيت الساعة. أتاني به المجلد، ودفعه إليّ. فقال: يا أبا محمد ناظر هؤلاء الدعاة. قال: في ماذا؟ قال في فضائل أهل البيت. فقال لهما: ما تحفظان في ذلك. فقال له أبو طالب: أنا أحفظ حديثان – ولحن – ثم سأل الآخر، فقال له: وأنا أحفظ حديثان. فقال فيما ذان الحديثان اللذان تحفظ أنت؟ فقال له: هما يحفظان حديثان – ونطق بلحنهما – وأنا أحفظ في ذلك تسعين حديثاً، فأولى بهما الرجوع إلي. ثم قال عبد الله: يا أبا محمد، من أفضل أبو بكر أو عليّ؟ قال: ليس هذا موضعه. فقال: لابد، فقال :أبو بكر أفضل من علي. فقال عبد الله: أيكون أبو بكر أفضل من خمسة، جبريل عليه السلام سادسهم؟ فقال أبو محمد: أيكون عليّ أفضل من اثنين، الله ثالثهما؟ إني أقول لك ما بين الوجهين، وأنت تأتيني بأخبار الآحاد. فضاق عبد الله، وقال: فمن أفضل عائشة أو فاطمة. فقال له: هذا آخر، سؤالك الأول؟ قال: لابد. قال: عائشة رضي الله عنها، وسائر أزواج النبي صلى الله عليه وسلم أفضل من فاطمة. قال: من أين؟ فقال له قال الله تعالى) : يا نساء النبي لستن كأحد من النساء إن اتقيتن) الأحزاب: ٣٢ فيقال، إن بعض الدعاة قال له في هذه المسألة. أيما أفضل، امرأة أبوها رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وأمها خديجة الكبرى، وزوجها علي بن أبي طالب ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وولداها الحسن والحسين، سيدا شباب أهل الجنة. أو امرأة، أمها أم رومان وأبوها عبد الله ابن أبي قحافة؟ فقال له أبو محمد: أيهما أفضل عندك، امرأة إذا طلقها زوجها، أو مات عنها تزوجها عشرون زوجاً؟ أو امرأة إذا مات عنها زوجها أو طلقها لم تحل لأحد؟ فيحكى، أن أبا عبد الله قال له: يا أبا محمد أنت شيخ المؤمنين، ومن يوثق بك، أدخل العهد وخذ البيعة. فعطف عليه أبو محمد وقال له: شيخ له ستون سنة، يعرف حلال الله وحرامه، ويرد على اثنين وسبعين فرقة، يقال له هذا؟ لو نُشِرتُ بين اثنين، ما فارقت مذهب مالك. فلم يعارضه، وقال لمن حوله: امضوا معه. فخرجوا ومعهم سيوف مصلتة. فمر بجماعة من الناس ممن أحضر، لأخذ الدعوة. فوقف عليهم فقال: تثبتوا ليس بينكم وبين الله عزّ وجلّ إلا الإسلام.(

ويصف لنا القاضي عياض هذه الفترة الحرجة، قال: (كان أهل السنة بالقيروان أيام بني عبيد، في حالة شديدة من الاهتضام والتستر. كأنهم ذمة. تجري عليهم في كثرة الأيام محن شديدة. ولما أظهر بنو عبيد أمرهم، ونصبوا حسيناً الأعمى السبّاب لعنه الله تعالى، في الأسواق، للسب بأسجاعٍ لُقِّنها. يوصل منها إلى سب النبي صلى الله عليه وسلم، في ألفاظ حفظها. كقوله لعنه الله: العنوا الغار وما وعى، والكساء وما حوى. وغير ذلك. وعلقت رؤوس الأكباش والحمر، على أبواب الحوانيت، عليها قراطيس معلقة، مكتوب فيها أسماء الصحابة. اشتد الأمر على أهل السنة. فمن تكلم أو تحرك قتل، ومثّل به

ومن هؤلاء أبو إسحاق إبراهيم بن عبد الله الزبيري المعروف بالقلانسي: ضرب سبع مائة سوط وحبس في دار البحر أربعة أشهر، بسبب تأليف كتاب الإمامة.

يقول القاضي النعمان وهو لسان الشيعة في ذلك الوقت: (لما كانت أيام المستنصر وفد إليه الحسن بن الصباح، فأشاع هذا المذهب في الأقطار ودعا الكافة إليه، واستباح الدماء بمخالفته؛ فاشتد النكير، وكثر الصائح عليهم من كل ناحية حتى أخرجوهم عن الإسلام ونفوهم عن الملة.(

وكان من مواجهة العلماء لهذا المذهب أن أفتوا بكفر بني عبيد ولعنهم والتبرؤ منهم.

قال الذهبي: (وقد أجمع علماء المغرب على محاربة آل عبيد لما شهروه من الكفر الصراح الذي لا حيلة فيه .وقد رأيت في ذلك تواريخ عدة ،يصدق بعضها بعضا(

قال القاضي عياض في ترجمة أبو محمد الكراني من علماء القيروان: (سئل عن من أكرهه بنو عبيد على الدخول في دعوتهم، أو يقتل؟ قال: يختار القتل، ولا يعذر أحد بهذا، إلا من كان أول دخولهم البلد. فيسأل إن يعرف أمرهم، وأما بعد، فقد وجب الفرار، فلا يعذر أحد بالخوف بعد إقامته، لأن المقام في موضع يطلب من أهله تعطيل الشرائع، لا يجوز، وإنما أقام من هنا من العلماء والمتعبدين على المباينة لهم، لئلا يخلو بالمسلمين عدوهم، فيفتنوهم عن دينهم. قال :وعلى هذا كان حبيب بن حمدون ونظراؤه، القطّان، وأبو الفضل الممسي، ومروان بن نصرون والجبنياني والسبائي، وبه يقولون ويفتون. وقال أبو يوسف بن عبد الله الرعيني في كتابه: أجمع علماء القيروان أبو محمد، وأبو الحسن القابسي، وأبو القاسم ابن شبلون، وأبو علي بن خلدون، وأبو بكر الطبني، وأبو بكر بن عذرة: أن حال بني عبيد، حال المرتدين والزنادقة، بما أظهروه من خلاف الشريعة، فلا يورثون بالإجماع، وحال الزنادقة بما أخفوه من التعطيل . فيقتلون بالزندقة. قال : ولما حمل أهل طرابلس إلى بني عبيد، أضمروا أن يدخلوا في دينهم، عند الإكراه. ثم ردوا من الطريق سالمين. فقال ابن أبي زيد رضي الله عنه: هم كفّار لاعتقادهم ذلك.(

وهذه من أشد المواقف التي مرت علي من علماء السنة تجاه الشيعة، حتى أنهم لم يعذوا من ألجئ إلى القتل.

وحكي عن ابن التبان أنه رأى الناس يوما مجتمعين في عاشوراء فبكى، فقيل له ما يبكيك، فقال: (والله ما أخشى عليهم من الذنوب لأن مولاهم كريم، وإنما أخشى أن يشكوا في كفر بني عبيد فيدخلوا النار(

وسئل ابن عذرة عن خطباء بني عبيد. وقيل له: إنهم يثنون عليهم. قال: (أليس يقولون: اللهم صل على

عبدك الحاكم، وورّثه الأرض؟ قالوا: نعم. قال أرأيتم لو أن خطيباً خطب فأثنى على الله تعالى ورسوله، فأحسن الثناء، ثم قال: أبو جهل في الجنة، أيكون كافراً؟ قالوا: نعم. قال: فالحاكم أشر من أبي جهل(

وسئل الداودي عن المسألة فقال: (خطيبهم الذي يخطب لهم، يدعو يوم الجمعة .كافر يقتل. ولا يستتاب، وتحرم عليه زوجته، ولا يرث ولا يورث ماله في المسلمين. وتعتق أمهات أولاده، ويكون مدبروه للمسلمين. يعتق أثلاثهم، بموته، لأنه لم يبق له مال. ويؤدى مكاتبوه للمسلمين ويعتقون بالأداء، ويرجعون بالعجز، وأحكامه كلها، أحكام الكفر. فإن تاب وأظهر الندم، ولم يكن أخذ دعوة القوم، قبلت توبته. ومن صلى وراءه، خوفاً، أعاد ظهراً أربعاً. ثم لا يقيم إذا أمكنه الخروج، ولا عذر له بكثرة عيال ولا غيره(

ولم يكتف العلماء بهذا الفتاوى الصريحة والجريئة، بل خرجوا على بني عبيد بسيوفهم، وجاهدوهم بأنفسهم وأموالهم.

فعندما ثار الخارجي مخلد بن كيداد المعروف بأبي يزيد على بني عبيد، تردد بعض العلماء في بادئ الأمر في القيام معه لموقفهم من الخوارج، لكنهم أجمعوا أمرهم بعد تشاور، وعزموا على الخروج مع أبي يزيد، لأن أبا يزيد من أهل القبلة، وبنو عبيد كفار ليسوا من أهل القبلة .

قال القاضي عياض: (وكان في قبائل زناتة، رجل منهم، يكنى بأبي يزيد، ويعرف بالأعرج صاحب الحمار، واسمه مخلد بن كيداد، من بني يفرن، وكان يتحلى بنسك عظيم، ويلبس جبة صوف قصيرة الكمين، ويركب حماراً، وقومه له على طاعة عظيمة .وكان يبطن رأي الصفرية. ويتمذهب بمذهب الخوارج. فقام على بني عبيد، والناس يتمنون قائماً عليهم. فتحرك الناس لقيامه، واستجابوا له. وفتح البلاد، ودخل القيروان، وفرّ إسماعيل إلى مدينة المهدية، فنفر الناس مع أبي يزيد، إلى حربه. وخرج بهم فقهاء القيروان، وصلحاؤهم، ورأوا أن الخروج معه متعين، لكفرهم. إذ هو من أهل القبلة... وكذلك كان أبو إسحاق السبائي، يقول. ويشير بيده إلى أصحاب أبي يزيد. هؤلاء من أهل القبلة لقتالهم. فإن ظفرنا بهم، لم ندخل تحت طاعة أبي يزيد، والله يسلط عليه إماماً عادلاً، يخرجه عنا.(

فاجتمعوا للخروج، وخطبهم أحمد بن أبي الوليد وحرضهم .وقال : (جاهدوا من كفر بالله، وزعم أنه رب من دون الله ،وغير أحكام الله ،وسب نبيه وأصحاب نبيه. فبكى الناس بكاء شديدا .وقال : اللهم إن هذا القرمطي الكافر المعروف بابن عبيد الله ،المدعي الربوبية ،جاحد لنعمتك ،كافر بربوبيتك .طاعن على رسلك ،مكذب بمحمد نبيك ،سافك للدماء .فالعنه لعنا وبيلا ،واخزه خزيا طويلا ،واغضب عليه بكرة وأصيلا .ثم نزل فصلى بهم الجمعة(

وكان معظم علماء القيروان حاضرا في هذه المعركة. وكانت سبعة بنود. بند أحمر للممسي مكتوب فيه: لا إله إلا الله محمد رسول الله. لا حكم إلا لله، وهو خير الحاكمين. وبندان أحمران لربيع (القطان)، في أحدهما: بسم الله الرحمن الرحيم. لا إله إلا الله محمد رسول الله. وفي أحدهما: نصر من الله وفتح قريب،

على يد الشيخ أبي يزيد. اللهم انصر وليك على من سب نبيّك، وأصحاب نبيّك. وبند أصفر لأبي العرب مكتوب فيه: بسم الله الرحمن الرحيم. قاتلوا أئمّة الكُفر الآية. وبند أخضر لأبي نصر الزاهد، فيه: لا إله إلا الله .قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم. وبند أبيض للسبائي، فيه: بسم الله الرحمن الرحيم. محمد رسول الله، وأبو بكر الصديق، وعمر الفاروق. وبند أبيض للعشّاء، وهو أكبرهم، فيه مكتوب: لا إله إلا الله. " إلا تنصروه فقد نصره الله"

وقتل في هذه المعركة خمسة وثلاثون من علماء وصلحاء القيروان.

وفي هذا الصدد هاكم هذا المثال ، والذي أورده صاحب كتاب (رياض النفوس) تعقيبا على احتلال عبيد الله المهدي لأفريقية ، إذ يقول فيه بأن فقيها مالكيا يدعى جبلة ، ترك رباطه بقصر الطوب ، وأقام في مدينة القيروان ، فقيل له : أصلحك الله ، كنت بقصر الطوب تحرس المسلمين وترابط ، فتركت الرباط والحرس ورجعت إلى هاهنا ! فقال:

"كنا نحرس عدوا بيننا وبينه البحر، فتركناه وأقبلنا نحرس الذي قد حل بساحتنا لأنه أشد علينا من الروم "

وهكذا قاوم العلماء هذا المذهب بأقوالهم وأفعالهم، واستبسلوا في دفعه عن أرضهم وبلادهم.

ولقد كان لهذه المقاومة أثرها على باقي مناطق المغرب العربي، إذ كانت القيروان وعلماءها آنذاك هم المقتدى بهم، وكانت الفتاوى تؤخذ عنهم، وكان أهل المغرب الأقصى بحواضره يتبعون القيروان وعلماءها. فما دام العبيديون قد فشلوا في إقناع أهل القيروان بالمذهب الشيعي وإلزامهم به وهم قلب دولتهم ومركز قوتهم، وينبوع دعوتهم، فإن عجزهم عن إقناع غيرهم من باب أولى.

وخصوصا المغرب الأقصى الذي لم يستقر المقام فيه للعبيديين، وبقي يتنازعه الخوارج من جهة، والأمويون في الأندلس من جهة أخرى.

فمن جهة استمرت دولة الأدارسة السنية في فاس، حتى سنة ٣٠٩ هـ، حتى تم إسقاطها على يد مصالة بن حبوس الذي أرسله العبيديون لإخضاع هذه المناطق، ولم تمر ثلاثة أشهر حتى عاد الحسن بن محمد بن القاسم بن إدريس المعروف بالحجام، واسترد مدينة فاس وقتل عاملها من طرف الفاطميين.

لكن غُدر به من طرف أحد عماله ويدعى حامد بن حمدان الهمداني، إذ كان من شيعة اليمن، فتآمر ضد دولته لصالح مذهبه، واستدعى الجيش الفاطمي بعد أن سجن أمير فاس، وعزله عن جنده، فبيتهم الشيعة الفاطميون، وسقطت فاس سنة ٣١٣.

كان القائد هذه المرة هو موسى بن أبي العافية، الذي نجح في إسقاط دولة الأدارسة في تلمسان أيضا، وذلك سنة ٣١٩هـ ليصفوَ الجو في المغرب الأقصى للعبيديين، لكنه لم يلبث إلا يسيرا حتى حول ولاءه إلى الأمويين، ليرسل الفاطميون جيشا آخر إلى فاس، ثم يهجم الأدارسة مرة أخرى على هذا الجيش بعد أن

نجح في القضاء على جيش أبي العافية.

لتخرج فاس عن سلطة العبيديين مرة أخرى سنة ٣٢٢هـ، فأرسلوا حملة أخرى في السنة التي تليها، وحاصروا مدينة فاس، لكنهم اتفقوا على الصلح هذه المرة، وأعطى أهل فاس البيعة للعبيديين، على أن يكون واليهم منهم، وإذا علمنا أن الدولة الفاطمية انتقلت إلى مصر سنة ٣٦١هـ، تبين لنا أن المذهب الشيعي لم يجد الوقت الكافي ليغرس نفسه في هذا القطر المضطرب من المغرب.

أما في شمال المغرب الأقصى فقد كانت الأمور أشد اضطرابا، وقامت ولاية نكور في شمال المغرب، على يد أمرائها من بني صالح، بالدفاع عن هذه المناطق الواسعة في شمال المغرب، واستمر صراع الفاطميين والأمويين عليها إلى أن صفت للأمويين بعد حروب سجال.

بعد كل هذه الصراعات وكل هذه الحروب، وكل هذه الضغوطات التي قوضت المذهب، قرر الخليفة الفاطمي المعز، أن ينهج نهجا جديدا في التعامل مع الواقع، ويلجأ إلى المهادنة والموادعة، بعدما رأى أن العنف لم ينفع في بسط نفوذ العبيديين في المغرب، لا من الناحية السياسية ولا حتى المذهبية.

ويظهر بعد هذا العرض المختصر لأحوال المغرب الأقصى في تلك الفترة، أن التشيع لم يستطع أن يجد محضنا له في تلك المنطقة لأسباب أهمها:

-1الاضطرابات السياسية: إذ لم يستقر مقام العبيديين في المغرب الأقصى، ولم تهدأ الثورات عليهم، فما كادت تهدأ الفتنة بين رجال المهدي وأهل القيروان، والتي أمر المهدي أتباعه على إثرها بالكف عن دعوة العامة إلى التشيع، حتى ثار عليه الخوارج في صقلية وفي تاهرت، واندلعت على إثرها ثورة الخوارج الكبرى على يد أبي يزيد، والتي عمت المغرب كله، وحازت مباركة الفقهاء ودعمهم، واشتدت نيرانها في عهد القائم ولده، وكبر شأنها في عهد المنصور، الذي ما لبث أن توفي قبل أن يقضي عليها، حتى جاء المعز، الذي انتهج سياسة الموادعة والمهادنة.

-2تأثير المدرسة القيروانية في الساحة الدينية: فقد كان لتلك المقاومة صداها في باقي حواضر المغرب، وكانت تلك الفتاوى القيروانية في تكفير العبيديين تطعيما مضادا ضد هذه الدعوة.

-3تأثير الخلافة الأموية السنية: في الأندلس على مجريات الأحداث، وتدخلها المستمر في قلب الوضع على العبيديين.

-4التأثير الديني للمدرسة الأندلسية السنية بعلماءها الكبار.

-5تمسك المغاربة بالمذهب السني الذي نشرته الدولة الإدريسية.

-6مقاومة الأدارسة في وسط المغرب وبني صالح في شماله لهذا المد. فلم يتشيع من المغرب إلا قبيلة كتامة وشرذمة من بعض القبائل الأخرى، وحتى كتامة لم تتشيع كلها، كالعالم الكبير عبد الرحيم بن أحمد الكتامي المتوفى سنة ٤١٣هـ، الذي قال عنه القاضي عياض: (كان كبير قومه كتامة ،وإليه كانت الرحلة في المغرب...قال: وكان أكثر مدته في قومه كتامة، رأسا فيهم) وكان من تلامذة بن أبي زيد رحمهم الله.

ومنهم أبو زيد عبد الرحمن بن مسعود الكتامي، توفي بعد ٣٩٠
وعبد العزيز بن عبد الرحيم بن أحمد بن الفخور الكتامي توفي ٤٣٠هـ
وغيرهم كثير.
فهذا يدل على أن كتامة لم تكن كلها من أتباع المذهب الشيعي.
عموما فإني لم أعثر على أي أثر لهذا المذهب في المغرب العربي، ولا حتى أيام قوة الدولة العبيدية وشدتها، وكل ما وجد في هذه الفترة هو الفتاوى في تكفير العبيديين، وبعض المناظرات التي تدل على مدى المقاومة التي مني بها دعاة التشيع في المغرب.
وكما مر فإن قبيلة كتامة، قد اضمحلت حتى لم يبق منها في القرن العاشر إلا ما يقارب أربعة آلاف شخص، وكما رأينا فإن من هذه القبيلة نفسها من كان من علماء السنة، ولم أجد في ما بين يدي من كتب تراجم الشيعة، غير رجل واحد ممن ترجم له ونُسب إلى هذه القبلية، وهو أبو طالب الحسن بن عمار الكتامي، وقد رحل مع الفاطميين، وكان قاضي طرابلس الشام، وتوفي سنة ٤٦٤هـ.
فلم أجد إلا واحدا من هذه القبيلة ممن صار له ذكر في أوساط الشيعة وصار من قضاتهم، بينما وجدت حوالي العشرة، من فقهاء السنة الذين ينسبون إلى هذه القبيلة في هذه الفترة.

فشل الدعوة الفاطمية الشيعية في اختراق أهل السنة في الأندلس

عاصر قيام الدولة الفاطمية بداية عصر الخلافة الأموية في الأندلس على عهد عبد الرحمن الناصر ، وشكل قيامها حاجزا بين أهل السنة في المشرق وأهل السنة في المغرب الأقصى والأندلس ، وفكر الفاطميون في غزو الأندلس منذ قيام دولتهم بغزو الأندلس ، ومهدوا لذلك بالدعاية الشيعية وبالجاسوسية تحت ستار التجارة أو العلم أو السياحة الصوفية ، نتيجة لخبرتهم في هذه المجالات ، وكان من جواسيسهم الرحالة ابن حوقل النصيبيني (ت ٣٦٧هـ – ٩٧٧م) . والذي جاب الأندلس وعاد ليرفع تقريره إلى المعز الفاطمي مشيرا إلى خيرات الأندلس وإلى نقاط ضعف الأندلسيين بل دفع حقد الفاطمي على أهل الأندلس السنة إلى التعاون مع الثائر الأندلسي النصراني عمر بن حفصون أواخر القرن الثالث ، وقد أمده المهدي بالذخيرة والأسلحة وأرسل له داعيين أقاما عنده وأخذ يحرضانه على التمسك بطاعة الفاطميين وإقامة دعوتهم .ومواصلة الحرب ضد دولة الخلافة السنية في الأندلس . ومثل وجود هذه الدولة في المغرب خطرا كبيرا على الدولة الأموية السنية في الأندلس ، وزاد من خطورتها عليهم ، تلك القوة البحرية الهائلة التي ورثتها عن الأغالبة.

سبب ذلك يرجع إلى عاملين هما:
الأول: يقظة الدولة الأموية والخلفاء الأمويين في الأندلس ونهوضهم لمجابهة هذا الخطر ، وكان يحكم

الأندلس في ذلك الوقت رجل قوي الشخصية ، بلغت الأندلس في عهده ذروة القوة والاستقرار ، وهو الخليفة الناصر لدين الله عبد الرحمن الثالث (٣٠٠- ٣٥٠هـ / ٩١٢-٩٦١) م

الثاني: قوة المذهب السني في الأندلس وتأصله في نفوس الأندلسيين ، فضلا عن وعي الأندلسيين واستنارتهم الفكرية والدينية ، (المذهب المالكي (

نهاية المذهب الشيعي في المغرب:

لقد عانى العبيديون كثيرا من المغاربة، واضطر المعز إلى أن يلجأ إلى الموادعة والمهادنة، حين بدأ يحس بفشله في المغرب، فتوجهت أنظاره إلى المشرق، بعد أن يئس من هذا الشعب العنيد...

قال في رسالة له لأحد المقربين منه: (وقد ابتلانا الله برعي الحمير الجهال، فإنا لم نزل نتلطف في هدايتهم، ومسايرة أحوالهم، إلى أن يختم الله لنا بالحسنى، والخروج من بين أظهرهم على أحمد حال(

وقال له بلكين بن زيري حين أراد أن يستخلفه على أرض المغرب: (يا مولانا :أنت وآباؤك الأئمة من ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم ما صفا لكم المغرب، فكيف يصفوا لي وأنا صنهاجي بربري؟ قتلتني يا مولاي بلا سيف ولا رمح(

ومن هنا ابتدأ تاريخ النهاية، ورفع الله المحنة عن العلماء، وانقلبت الكفة، وبدأ الوضع ينقلب على الشيعة، حتى بدأ العامة وبعض الناس بالتطاول عليهم، والتعرض لهم.

كما وقع للقاضي النعمان، وهو من أشهر علماء الفاطمية، وكتابهم. وقد بلغه من الأذى ما جعله يكتب للمعز رسالة يشكو فيها معاناته وما يلقاه من السب والشتم، والمضايقة.

فأجابه بجواب يظهر فيه ضعف الخليفة وعدم قدرته على الدفاع عن أتباعه المخلصين.

فكان مما قال له: (هذه الألسنة الحداد، هي متاجر النساء والسفل والأوغاد، تذهب بالإعراض عنها، وتزول بالاطراح لها، وتزيد وتعظم ما علم السفل بنَفاقها، فلا تصغ إلى سماعها، ولا تلق بالا لها...ومع هذا فللملك سياسة يساس بها، ولنا حدود لن نتعداها، والله يظهر أمره على رغم الراغمين، ولو كره المشركون(

فبدأ المعز يبحث له عن مكان آخر ينشر فيه مذهبه، وتنتعش فيه دولته، وأيس أشد اليأس من أن يستقر له المغرب، أو أن يتحول المغاربة عن مذهبهم.

فعزم على الخروج إلى مصر، وفكر فيمن يخلفه على المغرب، ففكر أولا في جعفر بن يحيى، الذي اشترط شروطا أغضبت المعز، فصرف النظر عنه إلى بلكين بن زيري الذي أظهر الخضوع والوفاء.

وعندما طلب منه ذلك، تعذر في بادئ الأمر، ثم قبل على أن يبقى الخراج والقضاء تحت أمر المعز مباشرة و،لا يتخذ رأيا إلا بمشاورته.

فاستحسن منه المعز هذا الصنيع وشكره، فلما انصرف بلكين، قال له عم أبيه، أبو طالب أحمد بن المهدي

عبيد الله: (يا مولانا: وتثق بهذا القول من يوسف أنه يفي بما ذكره ؟ فقال المعز: يا عمنا: كم بين قول يوسف وقول جعفر ؟ واعلم يا عم، أن الأمر الذي طلبه جعفر ابتداءً، هو آخر ما يصير إليه أمر يوسف، فإذا تطاولت المدة سينفرد بالأمر، ولكن هذا أولى وأحسن وأجود عند ذوي العقل، وهو نهاية ما يفعله من يترك دياره(.

فقد أحس المعز بهذه الفجوة الكبيرة بينه وبن شعبه، وأيقن أن المغرب سيعود إلى ما كان عليه، وأن بلكين بن زيري لن يفي بما ذكره...

وكان خروج المعز لثمان بقين من شوال سنة ٣٦١هـ.

يقول الدكتور محمد الحاجري: (لقد كان المعز يستشف ببصيرته ما يؤول إليه أمر العبيديين في أفريقية والمغرب عامة، ولعل أقصى ما كان يرجوه وهو يفارق إفريقية، أن تظل تابعة له معترفة به، أما الصبغة الشيعية، فقد علم أن لا رجاء له فيها(

لقد حاول التشيع فرض نفسه على المغرب بقوة السلطان وسلطة القوة، وقد أثارت هذه القوة ردة فعل موازية لها في القوة أو أشد منها، وفجأة تلاشت قوة الدفع لدى المذهب الشيعي لتندفع تلك القوة التي أثارتها ردة الفعل وتكتسح المجال، وتنفجر بعد الضغط الذي كبتها طيلة تلك السنين.

وليس من الصعب الآن أن نتصور الوضع الذي فرضته المرحلة، بالنسبة للذين بقوا على هذا المذهب، بعد ذهاب الدولة التي كانت تسندهم وتدعمهم.

لقد آثر كثير منهم المغادرة، وكان من قبائل كتامة من رافق الدولة في خروجها من المغرب، وهذا أمر طبيعي بالنسبة للمقربين من الخليفة، أن يصطحبهم في جهاده الجديد، ويكونوا في طلائع جيشه، والمقدمين من قواده. بينما بقيت قلة قليلة من قبيلة كتامة ممن ناصر الدعوة وتبناها، وسكنوا في حي خاص بهم من أحياء القيروان يسمى "حي المقلي" والذي كان خاصا بالشيعة، وقد رأينا بعض ملامح الإذاية التي بدأت تلحقهم أيام المعز. إلى أن جاء المعز بن باديس الخليفة الرابع من عائلة زيري، وأعلن رسميا تبنيه للمذهب المالكي، وإلغاءه لكل المذاهب التي كانت في المغرب، كمذهب الخوارج، ومذهب التشيع، وأعلن مبايعته لبني العباس.

يقول الدكتور الحاجري: (ولم يكن هذا التحول الذي حدث في سياسة الدولة الزيرية، وهذه القطيعة بين القيروان والقاهرة، إلا مسايرة من السلطة الحاكمة لطبقات الشعب، ورعاية للاتجاه السائد فيه، واستجابة لما كان لا يزال يسري في نوازع ذلك الشعب، فقهائه وعامته، على درجات متفاوتة، من إنكار لذلك الذي جاءت به هذه الدولة الجديدة(

عند ذلك برز الحقد الذي احتقن في نفوس المغاربة منذ سنين، فبعد أن رحلت الدولة التي كانت تدعم هذا المذهب، جاء الوقت الآن ليتعرى الشيعة من أي دعم سياسي يحميهم، بعد أن تنكر لهم المعز بن باديس، فأقدم المغاربة على قتل الشيعة، وارتكاب مجزرة بشعة في حقهم، ليتم بذلك القضاء على التواجد الشيعي

في المنطقة، يقول ابن الأثير:

)في هذه السنة –أي سنة ٤٠٧هـ– في المحرم قتلت الشيعة بجميع بلاد أفريقية. وكان سبب ذلك، أن المعز بن باديس ركب ومشى في القيروان، والناس يسلمون عليه ويدعون له ،فاجتاز بجماعة فسأل عنهم، فقيل هؤلاء رافضة يسبون أبا بكر وعمر، فقال رضي الله عن أبي بكر وعمر، فانصرفت العامة من فورها إلى درب المقلي من القيروان، وهي تجتمع به الشيعة، فقتلوا منهم، وكان ذلك شهوة العسكر وأتباعهم، طمعا في النهب، وانبسطت أيدي العامة في الشيعة، وأغراهم عامل القيروان وحرضهم .وسبب ذلك أنه كان قد أصلح أمور البلد ،فبلغه أن المعز بن باديس يريد عزله ،فأراد فساده، فقتل من الشيعة خلق كثير، وأحرقوا بالنار، ونهبت ديارهم، وقتلوا في جميع أفريقية ،واجتمع جماعة منهم إلى قصر المنصور قريب القيروان، فتحصنوا به فحصرهم العامة، وضيقوا عليهم ،فاشتد عليهم الجوع، فأقبلوا يخرجون والناس يقتلونهم حتى قتلوا عن آخرهم، ولجأ من كان منهم بالمهدية إلى الجامع فقتلوا كلهم .(

وفي الحقيقة نجد أن هذا العنف قد تولد عن سنوات من الاضطهاد والقمع والمعاناة، وما أن أتيحت الفرصة، حتى كال السنة للشيعة بنفس المكيال الذي كانوا يكيلون لهم منه، وسقوهم من نفس الكأس التي لطالما سقوهم منها.

وكانت هذه هي الضربة القاضية التي قصمت المذهب، ومسحت أي وجود له بعد ذلك اليوم.

ولا بد أن يكون هناك بقايا قد آثرت إخفاء عقيدتها، ولا بد أيضا أن تموت عقيدتهم المخفية معهم، وتدفن معهم في قبورهم.

وبهذا لم يبق أي أثر للشيعة في بلاد المغرب.

يقول السيد محسن الأمين –من علماء الشيعة في القرن الماضي– في كتابه أعيان الشيعة، الذي تتبع فيه الشيعة عبر مختلف الأزمنة والأمكنة، بعد أن ذكر هذه الحادثة: (ولا يعرف اليوم هناك أحد من الشيعة(

ملخص عام:

1-جاء رجلان شيعيان إلى المغرب وكونوا بعد ذلك دولة

2-رفض المغاربة المذهب وقاوموه فكريا وعسكريا.

3-بعد أن فقد المذهب الغطاء القمعي والمادي ثار ضده المغاربة وقاوموه بضرواة.

4-شارك العامة في القضاء على المذهب بالمجزرة الكبرى التي أوقعوها بالشيعة.

ويمكن أن نقسم مراحل التواجد الشيعي في المغرب إلى مرحلتين:

1-مرحلة التأسيس: وتمتد من سنة ٢٩٦ التي بويع فيها عبيد الله المهدي، إلى خروج الفاطميين من المغرب سنة ٣٦١، أي مدة ٦٥ عاما، وتميزت بما يلي:

أ– الصراع الفكري بين علماء القيروان والعبيديين، وإصدار الفتاوى بتكفير العبيديين.

ب– الثورات العسكرية المتتالية، وخروج أبي يزيد.

ج– محاولة إلزام الناس بالمذهب بواسطة القوة.

د– في أواخر هذه الفترة بدأ الشيعة يتعرضون للمضايقة، ولجأت الدولة إلى المصانعة والمداراة.

-2مرحلة التقوقع وبداية الانهيار: وتمتد من خروج العبيديين إلى القاهرة، إلى مبايعة المعز بن باديس للدولة العباسية سنة ٤٠٧هـــ، أي مدة ٤٦ سنة، وتميزت هذه الفترة بـــ:

أ– انحسار المذهب وتقوقعه في أحياء خاصة.

ب– التعرض للمضايقات والأذى.

ج– تعري المذهب من أي دعم فكري أو سياسي.

د– بروز بوادر الانتقام السني من الشيعة.

هـــ– القيام بمجزرة كبرى للقضاء على المذهب.

من أَقْوَالَ شَيْخُ الإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ فِي "مِنْهَاجِ السُّنَّةِ"

" : (3/243) إِنَّ أَصلَ كُل فِتْنَة وَبَلِيَّة هُم الشِّيْعَةُ ، وَمَنْ انْضَوَى إِلَيْهِمْ ، وَكَثِيْرُ مِنْ السُّيُوْفِ الَّتِي فِي الإِسْلاَمِ ، إِنَّمَا كَانَ مِنْ جِهَتِهِم ، وَبِهِم تَسْتَرت الزَّنَادقَةُ " .ا.هـــ.

وَقَالَ أَيْضاً (١١٠/٤ " : (فَهُم يُوالُونَ أَعْدَاءَ الدِّيْنِ الَّذِيْنَ يَعْرِفُ كُل أَحَد مُعادَاتِهم مِنَ اليَهُوْدِ وَالنَّصَارَى وَالْمُشْرِكِيْنَ ، وَيُعَادُونَ أَوْلِيَاءَ اللهِ الَّذِيْنَ هُم خِيَارُ أَهْلِ الدِّيْنِ ، وَسَادَاتِ الْمُتَّقِيْنَ ... وَكَذَلِكَ كَانُوا مِنْ أَعْظَمِ الأَسبَابِ فِي اسْتِيلاَءِ النَّصَارَى قَدِيْماً عَلَى بَيْتِ المَقْدِسِ حَتَّى اسْتَنْقَذَهُ الْمُسْلِمُوْنَ مِنْهُم " .ا.هـــ .

وَقَالَ أَيْضاً (٣٨/٣ " : (فَقَدْ رَأَيْنَا وَرَأَى الْمُسْلِمُوْنَ أَنَّهُ إِذَا ابْتُلِيَ الْمُسْلِمُوْنَ بِعَدُوٍّ كَافِرٍ كَانُوا مَعَهُ عَلَى الْمُسْلِمِيْنَ " .ا.هـــ.

وَقَالَ (٣٨/٣ " : (فَقَدْ رَأَيْنَا وَرَأَى الْمُسْلِمُوْنَ أَنَّهُ إِذَا ابْتُلِيَ الْمُسْلِمُوْنَ بِعَدُوٍّ كَافِرٍ كَانُوا مَعَهُ عَلَى الْمُسْلِمِيْنَ " .ا.هـــ .

وَقَالَ(٢٤٤/٣ " : (وَقَدْ رَآهُم الْمُسْلِمُوْنَ بِسَوَاحِلِ الشَّامِ وَغَيْرِهَا إِذَا اقْتَتَلَ الْمُسْلِمُوْنَ وَالنَّصَارَى هَوَاهُمْ مَعَ النَّصَارَى يَنْصُرُونَهُم بِحَسَبِ الإِمْكَانِ ، وَيَكرَهُوْنَ فَتحَ مدائنهمْ كَمَا كَرِهُوا فَتحَ عكّا وَغَيْرِهَا ، وَيَختَارُونَ إِذَالَتَهُم عَلَى الْمُسْلِمِيْنَ حَتَّى إِنَّهُمْ لَمَّا انْكَسَرَ الْمُسْلِمُوْنَ سَنَةَ غَازَان سَنَةَ تسْعٍ وَتِسْعِيْنَ وَخَمْسَمائَة ، وَخَلَتْ الشَّامُ مِنْ جَيْشِ الْمُسْلِمِيْنَ عَاثُوا فِي البِلاَدِ ، وَسَعَوْا فِي أَنْوَاعٍ مِنَ الفسَادِ مِنَ القَتْلِ وَأَخْذِ الأَمْوَالِ ، وَحَمَلِ رَايَةِ الصَّلِيْبِ ، وَتَفْضِيْلِ النَّصَارَى عَلَى الْمُسْلِمِيْنَ ، وَحَمَلِ السَّبْيِ وَالأَمْوَالِ وَالسِّلاَحِ مِنَ الْمُسْلِمِيْنَ إِلَى النَّصَارَى بِقُبْرُص وَغَيْرِهَا ، فَهَذَا وَأَمْثَالُهُ قَدْ عَايَنَهُ النَّاسُ ، وَتوَاتَر عِنْدَ مَنْ لَم يُعايِنْه "